الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي
إعداد
مكتبة الحرم المكي الشريف
أخطر من الأفعى!
المجموعة القصصية الرابعة
إنتاج
إدارة المطبوعات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

ولم يملك دموعه الغزار

ليتني أعود طالباً

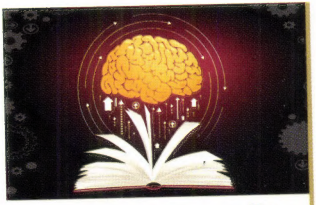

مثقّفون جاهلون

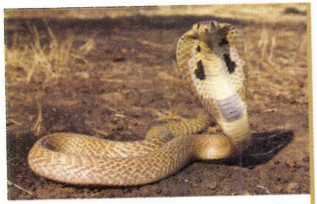

أخطر من الأفعى

ولم يملك
دموعه الغزار!

دخل ودمعة حرّى على خده، يخفيها حياء عن أعين الناظرين. وكان التعب بادياً على وجهه المكدود؛ ولكنه استروح نسائم باردة استقبلته وضربت صفحة وجهه عند الدخول، قدّم رجله اليمنى وتمتم:

«بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله. اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك».

انعطف إلى اليمين يريد أن يشرب من ماء زمزم. شعر في نفسه بالامتنان لمن وفّر الماء ووضعه هنا؛ ليجده الزائر فور دخوله. ملأ الكأس وأدناه من فمه، تذكر دعاء تعلّمه يقوله من يريد أن يشرب من ماء زمزم، تمتم به بهمسٍ خفي: «اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء».

مشى ببطء شديد، وبخطوات ثقيلة.. أرهقته مشقة السفر.. فوقما أثقلته ذنوب العمر. أخذ يحدّث نفسه بأسى:

هل لمثلي يُغتفر؟! لم أدع صغيرة ولا كبيرة إلا عملتها من الذنوب والمعاصي..

كنت صبياً صغيراً ، وكنت نقياً طاهراً .. لا أعرف معنى للذنوب إلا اسمها، فيا ليتني بقيت صبياً صغيراً. نقياً طاهراً ، ولم أخلط إيماني بذنب . ليتني .. ولكنّ «لو» تفتح عمل الشيطان كما سمعت من خطيب الجمعة. ربّاه هل لي من توبة؟ كيف يمكنني أن أكفّر عن سيئاتي وقد بلَغتْ أو كادت عنان السماء ، وبلغتُ أنا من الكبر عتياً؟! ما كنت أتصور قط أن هذا الحلم يتحقق، وكنت أرجو في نفسي أن يحققه الله لي وأنا شابّ، وكلما امتد بي العمر وطالت السنين خشيت أن أفارق الدنيا ولما يتحقق، وظننت أن ذنوبي حائلة بيني وبين تحقيقه، فأما وقد تحقق فهل لي من توبة؟

هل لمثلي يُغتفر؟!

لم أدع صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمعاصي إلا عملتها..

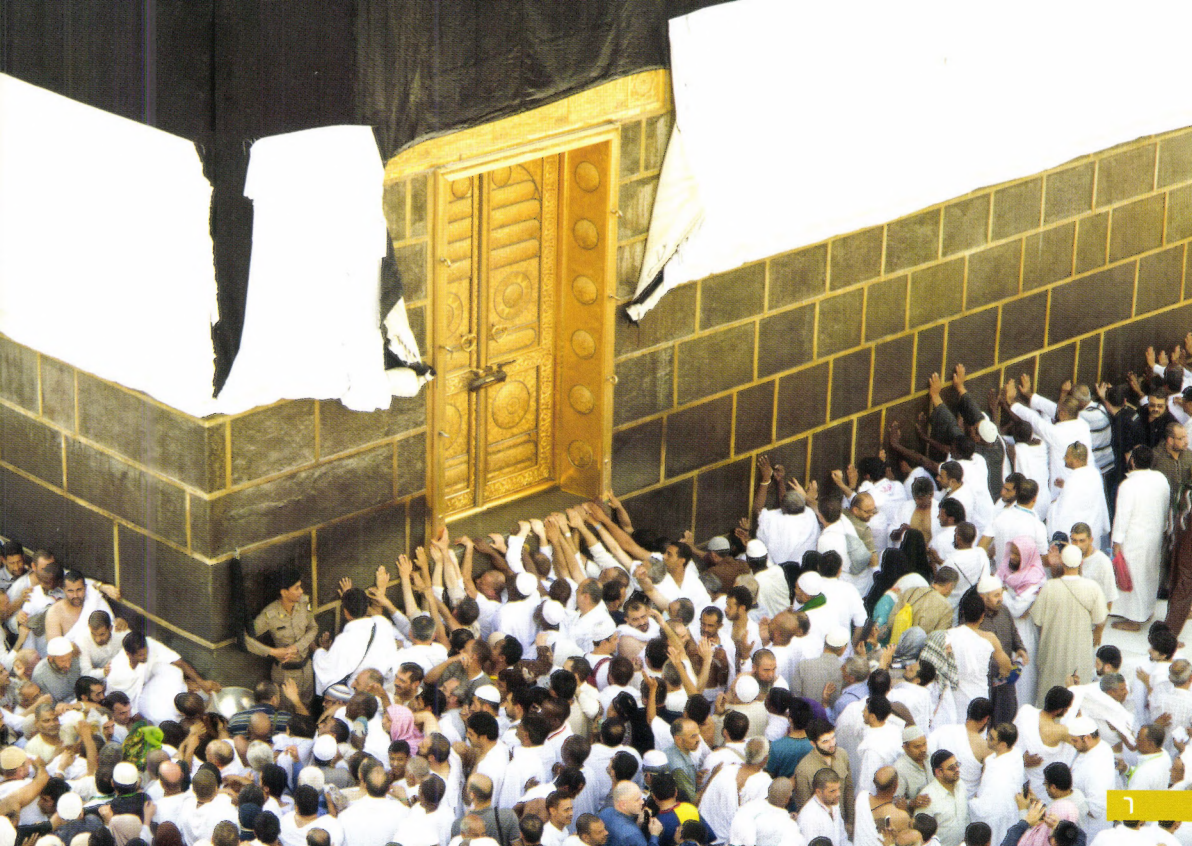

وهنا بلغ المطاف ورأى الكعبة أمامه تعلو بالسواد، وتكسوها المهابة في إجلال، وذاب بنفسه وروحه في جموع الطائفين، واستغرق بكلّيته في الذكر والتسبيح.

وبعد أداء ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام أقبل ينضم إلى جموع المنصتين في حلقة لأحد العلماء المنتشرين في أرجاء المسجد الحرام، يعلّمون الناس الخير . وانزاح عن صدره شيء من همومه وإن لها بقيةً تحزّ في النفس الحزينة . وتناهى إليه صوت الشيخ عميقاً هادئاً ينساب إلى نفسه كما يجري في النهر ماءٌ رقراق، وكان الشيخ يتحدث عن سعة رحمة الله تعالى، وعن أثر توحيد الله بالعبادة في إدراكها ونيلها، وانتبه للشيخ وهو يقول في ختام درسه الذي تمنى أن لو طال أكثر:

أيها الإخوة: مهما عظم ذنب الإنسان في نفسه فليعظّم رحمة ربه في قلبه ، ومهما كثرت معاصيه فليستحضر فضل التوحيد وما يكفّره من الذنوب والمعاصي! وأنّ الله تعالى يقول: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك

وهنا بلغ المطاف ورأى الكعبة أمامه تعلو بالسواد، وتكسوها المهابة في إجلال، وذاب بنفسه وروحه في جموع الطائفين، واستغرق بكلّيته في الذكر والتسبيح.

لهم الأمن وهم مهتدون}. أي: لم يخلطوا توحيدهم بشرك ، فأولئك لهم الأمن وطمأنينة النفس وزوال الخوف من آثار الذنوب والمعاصي ونتائجها ما داموا ثابتين على التوحيد ، مقيمين على الإيمان، متندّمين على العصيان. ولكم هذه البشارة الخالدة من حبيبكم ﷺ إذ يقول في الحديث القدسي: «قال الله تعالى: يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»؛ وذلك لفضل التوحيد وكثرة ثوابه عند الله في الميزان.

الله أكبر! صاح بها في سره ولم يملك دموعه الغزار.. هطلت من عينيه كالسيل المدرار .. لا يحبسها ولا يخفيها عن الأنظار، ومازال يرددها في سره بتكرار: الله أكبر

الله أكبر ولله الحمد.. الله أكبر ولله الحمد..

ليتني أعود طالباً!

قام فزعاً من مكتبه واتجه إلى مديره في العمل:

- من فضلك يا أستاذ يجب أن أخرج الآن..

- خيراً أبا صالح.. أنت نموذج للموظف المثالي الناجح، ونادراً ما تتأخر أو تتغيب عن العمل، فلماذا تستأذن الآن؟

- اتصل بي مدير مدرسة ابني، يطلب مني الحضور على الفور..

- لا مانع أبا صالح.. اذهب لزيارة ابنك وأخبرني عنه فيما بعد، ولا تعد إلى الدوام اليوم. ما يبقى من الوقت بعد الزيارة إجازة لك..

- بل هو لأم صالح يا أستاذ!

- لماذا؟

- طلبات النساء لا تنتهي، وأعمال البيت لا تنتهي حتى تبدأ من جديد!

تضاحك الاثنان، وانصرف أبو صالح متوجهاً إلى مدرسة ابنه..

أنت نموذج للموظف المثالي الناجح، ونادراً ما تتأخر أو تتغيب عن العمل، فلماذا تستأذن الآن؟

حين دخل على مدير المدرسة وعرّفه بنفسه قام له المدير وحيّاه وبالغ في إكرامه والاحتفاء به، ثم قال له متبسماً وهو يرى آثار الاهتمام والقلق في وجه أبي صالح:

- اطمئن أبا صالح.. ليس هناك ما يقلق.. كل شيء على ما يرام.. استدعيتك فقط لأتعرّف عليك.. بعد امتناعك عن الزيارة رغم خطاباتنا المتكررة..

قال أبو صالح وقد شعر بشيء من الحرج:

- اعذرني يا أستاذ.. دوامي في نفس توقيت المدرسة، ويصعب عليّ أن أترك العمل لمجرد زيارة عادية..

- ولكنها مهمة بالنسبة إلينا خصوصاً وأنت ولي أمر الطالب صالح..

عاود القلقُ أبا صالح وسأل المدير متردِّداً:

- خيراً يا أستاذ.. ما به ابني صالح؟

- يذكرهُ جميع معلّميه بخير، ويشهدون له بالاجتهاد في الدراسة، ويؤكّدون سموّ أخلاقه في التعامل مع زملائه ومعلميه، ولهذا فقد أجمعوا على اختياره للفوز بجائزة الطالب المثالي لهذا الشهر، ومن هنا حرصت على اللقاء بك والتعرف عليك..

تنفّس الصعداءَ أبو صالح، وقال من أعماق قلبه:

- الحمد لله، ذلك بفضل جهودكم بعد فضل الله يا أستاذ..

- وبفضل جهودكم ومتابعتكم في البيت يا أبا صالح، ومن الضرورة بمكان أن تستمروا في المتابعة ليحافظ على هذا المستوى..

- أبشر يا أستاذ، لك ذلك إن شاء الله.

كانت مفاجأة سعيدة للابن المراهق أن يرى أباه زائراً له في المدرسة، فقلما يزور أولياء الأمور أبناءهم في مدارسهم في هذه الأيام إلا لحل المشاكل أو استجابة لطلبات الإدارة.

أحبَّ أبو صالح أن يمكث حصة كاملة في الفصل مع ابنه كي يشهد بنفسه ما يدور خلالها.. فاستأذن من معلم الحصة وجلس في آخر الفصل يراقب ويستمع.. وانطلق المعلم يشرح ويشرح ولكن بالسؤال والمناقشة. وكان درساً من دروس التوحيد. سأل الأستاذ طلابه:

ابنك صالح يذكرهُ جميع معلّميه بخير، ويشهدون له بالاجتهاد في الدراسة، وبسموّ أخلاقه، لهذا فقد أجمعوا على اختياره للفوز بجائزة الطالب المثالي لهذا الشهر

- ما تعريف «النَّذْر» يا شباب؟

فارتفعت أياد كثيرة في الفصل من بينها يد «صالح»، فسمح له المعلم بالإجابة فقال:

- «النذر» يا أستاذ: مصدر نذَرَ، أي أوجب على نفسه شيئاً لم يكن واجباً عليه في الشرع تعظيماً للمنذور له.

- أحسنت يا صالح، إجابتك صحيحة، ولك درجة في المشاركة ولكن من يعطيني مثالاً لما ذكره صالح؟

فارتفعت الأيدي من جديد وأصحابها يتطلعون لأن يسمح لهم المعلم بالإجابة، فسمح لأحدهم فقال:

- مثلاً يا أستاذ إذا رغبت أن أنجح في الامتحانات نهاية العام الدراسي، فأقول: لله عليَّ نذْر أن أصوم له يومين إذا نجحت في الاختبار!

- أحسنت يا مصعب، إجابتك صحيحة، ولك كذلك درجة في

أعاد المعلم السؤال:

هل «النذر» عبادة؟

أجابه الطلاب:

نعم يا أستاذ!

المشاركة. لكن ما حكم العمل والوفاء بهذا النذر الذي نذره مصعب على نفسه يا شباب؟

وارتفعت الأيدي مجدداً تنتظر الإذن بالإجابة، فاختار المعلم من بينها أحدهم ليقول:

- حكم العمل والوفاء بالنذر واجب يا أستاذ!

- حتى لو نذر أن يرتكب معصية أو فعلاً محرماً يا صهيب؟

تردَّد صهيب واحتار ولم يجب، فأجاب عنه من بجواره:

- كلا يا أستاذ، من نذر لله بمعصية فإنه يحرم عليه أن يوفي بنذره!

تهلل وجه المعلم:

- أحسنت يا سعد، إجابتك صحيحة، ولك ولصهيب درجة في المشاركة ولكن هل يجوز «النذر» لغير الله يا شباب؟

فسكت الشباب وحاروا، ولم ترتفع أياديهم هذه المرة.. وأعاد عليهم المعلم سؤاله مرتين وثلاثاً وما زالوا في سكوتهم يتردَّدون..

أعاد المعلم السؤال بطريقة جديدة:

- هل «النذر» عبادة يا شباب؟

أجابه نصفُ من في الفصل:

نعم يا أستاذ!

- أحسنتم، فهل يجوز صرف شيء أو نوع من أنواع العبادة لغير الله؟

أجابه كل من في الفصل بصوت واحد:

- لا يجوز يا أستاذ!

- إذن هل يجوز «النذر» بصوم أو صلاة أو ذبح لغير الله يا شباب؟

- لا يجوز يا أستاذ!

- فما حكم من نذر بشيء من العبادة لغير الله إذن؟

قال بعضهم:

- شرك!

وقال آخرون:

- حرام!

ابتسم المعلم مختتماً درسه عن«النذر»:

- بل هو شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأن «النذر» إنما يكون تعظيماً للمنذور له كما عرّفه زميلكم صالح، ومن عظّم غير الله تعالى وصرف له شيئاً من أنواع العبادة التي لا تُصرف إلا لله فقد أشرك مع الله تعالى وعرّض نفسه للعقاب الذي أخبر عنه سبحانه في قوله: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ

{إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}

[النساء:٤٨]

بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء:٤٨] شكراً لكم يا شباب..

هنا صاح أبو صالح قبل أن يخرج من الفصل ويغادر المدرسة مطمئناً إلى أن ابنه يتلقى تعليماً صحيحاً سليماً في المدرسة:

- وشكراً لك يا أستاذ.. هؤلاء ثمار غرسك ونتاج أمانتك، فجزاك الله عني وعن أولياء أمورهم خيراً..

مثقّفون جاهلون!!

فتح التلفاز وهو يشعر بالملل، فرأى أديبه المفضل على الشاشة، فقال في نفسه وهو يتآمله:

- وافرحتاه!

وإذ بالمذيع يسأله وهو يجري معه لقاء تلفزيونياً مباشراً:

- أنت مثقف وأديب وتشارك في معرض الكتاب السنوي كل عام، فكيف تقيّم الإقبال على المعرض هذا العام؟

كان الضيف الأديب ينتظر هذا السؤال بالذات كي يطرح رؤيته المختلفة للثقافة والمثقفين والمشهد الثقافي السائد بصفة عامة، فأجاب بنبرة جادّة يشوبها بعضُ الأسى:

- هناك من يفرح بظاهرة الإقبال على معارض الكتب من قِبل الجماهير، رجالاً ونساءً وشباباً، وحرصهم على الشراء، وإنفاقهم فيها بالمئات وربما الآلاف، ولكنّ العبرة في النهاية بنوعية الكتب التي يكثر الإقبال عليها من قبل القراء، وانعكاس أثرها على أرض الواقع..

قاطعه المذيع قبل أن يكمل:

- تقول: هناك من يفرح، وكأنك أنت لا تفرح؟

- طبعاً لا..

فاتسعت عينا المذيع دهشة من هذا الرأي الجريء وقال:

- لماذا؟

- لأنك ترى أفواجاً من المثقفين والقراء يشترون أرطالاً وربما أطناناً من الكتب والموسوعات ثم تجد بينهم من لا يعرف كيف يحافظ على دينه وسلامة عقيدته من شوائب الشرك والبدع..

بقدر ما يسرني أن أزور مكة والمدينة وأدخل الحرمين الشريفين يسوؤني بعض ما أجد فيها ويؤذيني أيضاً بعض الشيء!

قاطعه المذيع من جديد وقد بدا عليه الاستغراب:

- عفواً يا أستاذ.. ما علاقة القراءة والثقافة وشراء الكتب بالمحافظة على الدين وسلامة المعتقد؟

- هنا مربط الفرس كما يقولون، وكأنك تضع يدك على موضع «الجرح الثقافي» إن صحّت هذه التسمية.. أسمح لي أن أسألك سؤالاً: لماذا يقرأ المثقفون؟

رد المذيع بلا تردد:

- يقرأ المثقفون لأنهم يتطلّعون في النهاية إلى المحافظة على سلامة نموهم الفكري بصفة مستمرة، بعيداً عن الظنون والأوهام والخرافات..

- أحسنت، هذا هو التعريف الذي كنت أريده.. والآن يمكننا أن نسأل من جديد: أليست المحافظة على صفاء الدين وتنقيتُه من شوائب الشرك والبدع الدينية - التي هي أخطر من الأوهام والخرافات الفكرية - من أولى

شعائر ومقدسات أرادها الله تعالى مواضع للعبادة وفق ما شرع سبحانه، لا لتقديسها والتبرك بها واعتقاد النفع والضر فيها..

أولويات المثقف المسلم؟ فكيف يمكنه ذلك وهو يعتقد أن مهمته تنحصر في متابعة الجديد في الفكر والأدب والثقافة، وليس عليه أن يقرأ كتاباً في التفسير أو العقيدة؛ لأن هذه المهمة في اعتقاده هي من اختصاص المشايخ والعلماء والمتدينين، وهو إنما يسمي نفسه بالمثقف وبشيء من الترفّع الملحوظ!

أحب المذيع أن يستفزّه بسؤال ليدفعه إلى مزيد من الإيضاح فقال:

- ألست تحترم التخصص يا أستاذ؟

- بلى، التخصص الدقيق جزء من المكوِّن الفكري والثقافي الذي لا محيص عنه لكل مثقف، ولكن ما رأيك في مثقف يقرأ ويطلع، ويكتب وينشر المؤلفات وهو لا يسلم من إدمان الكحول أو تعاطي المخدرات وغير ذلك من

مظاهر التردي والانحطاط الخلقي؟ أليس ذلك تناقضاً صارخاً في حياة هذا المثقف بين السمو الفكري والتردي الأخلاقي؟ فكيف بما هو أخطر من ذلك؟

وتساءل المذيع كمن يستنكر أو يتشكّك:

- وهل هناك أخطر من ذلك؟

- نعم، أن تجد بين المثقفين المسلمين من يقرأ أو يطّلع ويكتب ويؤلف، ويساهم في النهضة الثقافية والتقدم الفكري في مجالات العلم والمعرفة والبناء الحضاري، ثم لا يسلم من الوقوع في خطر الشرك والبدع.. لأنه ببساطة يقرأ في كل شيء، ويفهم في كل شيء، لكنه في المقابل لا يعرف أساسيات دينه.

– مثل ماذا يا أستاذ؟ اضرب لنا مثلاً..

– مثل أن تقرأ رواية أدبية جميلة تتقاطر فنا وإبداعا لأديب محترم تحسن به الظن، وهي لا تخلو من صور كثيرة لمظاهر الشرك والبدع، مبثوثةٍ في ثنايا القصة وبين أحداثها ووقائعها؛ كأن يعمد بطل القصة إلى زيارة ضريح الإمام الفلاني أو الشيخ الفلاني أو الولي الفلاني، ليتبرّك بهذه الزيارة ويدعو عنده أو يتوجّه إليه بالدعاء مباشرة، دون ورود ما يدلّ على استنكار المؤلّف لهذا الفعل في ثنايا القصة، وربما سطّر من العبارات والجمل ما يوحي إلى القارئ بأنه مُوافق للبطل فيما يفعل، وكأنه يدعو قارئه أو يقوده بطريق غير مباشر إلى الاقتداء ببطل القصة في ارتكاب هذا المحظور. تتعجب من ذلك ويُخَيّل إليك أنّ الرواية ألّفها أديب غير مسلم؛ ما يجعلك تعود إلى الغلاف لتُمعِن النظر في اسم مؤلفها وتتأكد من كونه أديباً مسلماً مثقفا!!!

وهنا قاطعه المذيع وهو يتحفزّ:

– كأنك تشير إلى رواية بعينها، وأظنني قرأتها أيضاً، ولهذا أجدها فرصة لأن أسألك عن حكم الدعاء عند القبور؛ وإن كنا نخرج بالحوار إلى غير الوجهة التي أردناها..

– على الرحب والسعة، بل هي فرصة لهذا المؤلف ولقرّائه أيضاً إن كانوا يتابعوننا الآن أن "يتثقفوا" حول الحكم الشرعي لهذه المسألة الخطيرة.. فالدعاء عبادة كما هو معلوم، ومن دعا غير الله تعالى فقد أشرك الشرك الأكبر، قال الله تعالى لنبيه الكريم ﷺ ينهاه أن يدعو أحداً من سائر المخلوقين العاجزين: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس:١٠٦]. ويُفهم من الآية أن أصلح الناس – وهو النبي ﷺ – لو دعا غير الله صار من الظالمين أي المشركين، فكيف بمن دونه؟!.. وذلك لأن الله سبحانه هو المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والنفع والضر دون سواه من المخلوقين، فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعوَّ وحده، والمعبودَ وحده دون غيره ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا، فضلاً عن أن يملكها لغيره؛ بل هو غافل عن دعوات الداعين له، لا يسمعها منهم ولا يستجيبها لهم، كما قال سبحانه: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو

قد يقع المسلم في الشرك في أطهر بقعة على وجه الأرض، وهو يظن أنه إنما جاء هنا ليصفو له دينه وتوحيده وعقيدته..

مِنْ دُونِ اللهَّ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)} [سورة الأحقاف]، فليس هذا الداعي لغير الله إلا في نكد وخسران في الدارين، لا يحصل على إجابة في الدنيا، وتُجحد عبادته في الآخرة أحوج ما يكون إليها..

تدخل المذيع في هذه النقطة، وقاطعه قائلاً:

- شكراً يا أستاذ على هذا الإسهاب والتوضيح. إذن فأنت تدعو المثقفين وعامة القراء إلى التثقف في أحكام الشرع ومسائل الدين، خصوصاً مسائل التوحيد والعقيدة..

- نعم، ومعارض الكتب السنوية فرصة لأن يتزوّد منها المثقف المسلم بكتب شرعية تساهم في تصحيح عقيدته، جنباً إلى جنب مع نموه الثقافي والمعرفي والأدبي.. بدلاً من عدم المبالاة التي نشهدها حالياً تجاه الثقافة الإسلامية والشرعية، وكأن الشرع وعلوم الدين ليست من الثقافة الجادّة في شيء..

- كلمة تختم بها هذا الحوار الثقافي الماتع يا أستاذ..

زفر الأستاذ الأديب زفرة طويلة من أعماقه ثم قال:

- أن نجعل شرع الله تعالى، وعلوم ديننا الإسلامي العظيم أساساً لمنطلقنا الثقافي وبنائنا الفكري قبل أن نصبح حقيقة لا مجازاً «مثقفين جاهلين»!

أخطر من الأفعى!

أخيراً قابلها وجهاً لوجه وليس بينه وبينها إلا مسافة خطوتين. تقابلا كما يتقابل عدوان لدودان بعد طول انتظار وكل منهما يخاف صاحبه، ويحرص على أن يسبق إليه فيقضي عليه..

رآها من بعيد في اليوم الأول، وأيقن أنها رأته وتجاهلته، ثم رآها في اليوم الثاني من مسافة أقرب، وظن أنها ما زالت تتجاهله، وفي اليوم الثالث ترقّبها ولم يصادفها، بعد ذلك انتظرها في اليوم الرابع ولم يقف لها على أثر. كاد ينساها في اليوم الخامس لولا أنه قابلها أخيراً وجهاً لوجه، وعلائم التحفز للانقضاض عليه باديةٌ على وجهها وعينيها بكل وضوح..

أين كانت مختفية عنه طيلة يومين؟ وكيف ظهرت أمامه الآن فجأة؟ من أين خَرَجَت؟ وكيف اقتربت منه إلى هذا الحد؟ لماذا لم يشعر بها وهي تسعى وتقترب؟ هل كانت تستعد له؟ هل كانت تخادعه وتراوغه؟ هل خطّطت للقضاء عليه وصمّمت على هذا اللقاء الذي فاجأته به؟ ولماذا تفكر فيه بنفس الطريقة التي يفكر فيها؟ كيف وصل الأمر بينهما إلى حد التفكير في تخلص كل منهما من الآخر ولم يكن بينهما لقاء قبل اليوم؟ والأهم من ذلك كيف يهرب منها وينجو بنفسه، قبل أن يفكر في العودة للقضاء عليها؟

ليس له من شأن في الدنيا غير
الاهتمام بمزرعته التي ورثها عن أبيه،
يزورها كل يوم ويعتني بها، يشرف على
رعايتها بنفسه ولا يكتفي بما يقوم به
العاملون المستأجرون رغم اجتهادهم
وأمانتهم في الحملة..

ليس له من شأن في الدنيا غير الاهتمام بمزرعته التي ورثها عن أبيه، يزورها كل يوم ويعتني بها، يشرف على رعايتها بنفسه ولا يكتفي بما يقوم به العاملون المستأجَرون رغم اجتهادهم وأمانتهم في الجملة..

واليوم.. اليوم بالذات.. بكّر في الحضور لكونه يوم إجازة لكل العاملين إلا اثنين منهم.. لا يراهما الآن قريباً منه بحيث يريانه أو يسمعانه إذا هتف بهما. ماذا يفعل؟ كيف يتصرف قبل أن تحيط به وتقطع عليه فرصة الهرب؟

هي أطول مما قدّرها في نفسه، وأكبر حجماً مما بدت له في اليوم الأول والثاني، وأكثر خبثاً

وأشد شراسة مما كان يتوقّع.. ومع ذلك فهي لا تقل عنه حذراً وخشية مما قد يمكن أن يقع في أي لحظة من اللحظات القادمة..

بقيت في مكانها هادئة وادعة ساكنة، إلا أنها ظلت تحدّق إليه بعينين نافذتين كالسهم.. كأنها تنتظر منه أن يتحرك أو تبدر منه بادرته التي يمنحها الفرصة لأن تتعقّبه، ولكنه ظل مثلها في مكانه هادئاً متجمّداً كالصخر.. لا يتحرك منه شيء.

وفجأة.. قرّرت أن تهاجمه بدلا من هذا الانتظار القلق، ورمت بنفسها عليه، ومدت لسانها إليه، فاتقاها في اللحظة المناسبة بجاروف من حديد كان في يده، وردّها عن نفسه ردّاً عنيفاً، وانطلق يعدو بكل قوته. لم يكن يظن أنّ به بقيةً من القوة تسعفه في لحظة حاسمة كهذه، ومازال يعدو لا يلتفت إلى الخلف، ولا يدري المسافة التي تفصله عنها وإن كان يصله فحيحها جرّاء احتكاكها بالأرض وهي تلاحقه، حتى هوى بكل جسمه إلى داخل البئر!

وفجأة.. قرّرت أن تهاجمه بدلا من هذا الانتظار القلق، ورمت بنفسها عليه، ومدت لسانها إليه، فاتقاها في اللحظة المناسبة بجاروف من حديد كان في يده، وردّها عن نفسه ردّاً عنيفاً

لم يرتطم بجوانب البئر، واستقر أخيراً في القاع الممتلئ بالماء الدافئ.. وكل خوفه أن تتعقّبه إلى أعماق البئر..

انتظرها دقيقة واثنتين وثلاثاً ولم تأت، كل دقيقة منها تساوي قطعة مديدة من الدهر، ولم يدُرْ بخلده أن يفكر خلالها كيف سقط وهوى إلى البئر؟ كيف لم يرها ولم ينتبه إلى أنها كانت فاغرة فاها بلا غطاء؟ منذ متى تركها عمّال المزرعة هكذا؟ كل ما فكّر فيه هو كيف سيتصرّف إذا لحقت به الأفعى إلى داخل البئر؟ وماذا سيكون مصيره إذا أدركته وانفردت به وعجز عن التصرف حينئذ؟ فلما اطمئن إلى أنها انصرفت عنه ولن يقابلها من جديد ساوره قلق من هذا النهار الراحل، والليل القادم والظلام الحالك داخل البئر..

كيف سيمكنه الخروج؟ هل يستطيع الخروج بنفسه؟ بالتأكيد لا. من الذي سيخرجه من العمّال؟ هل بقي منهما أحد؟ هل يصلهما صوته ويسمعانه إذا استنجد بهما واستغاث؟ أغلب الظن لا. وإذن ما الحل؟

من الذي سيخرجه من العمّال؟ هل يصلهما صوته ويسمعانه إذا استنجد بهما واستغاث؟ أغلب الظن لا. وإذن ما الحل؟ الغوثَ الغوثَ يا.. يا من؟

الغوثَ الغوثَ يا.. يا من؟

هل يُعقل أن أستغيث بميت لينقذني مما أنا فيه وقد عجز الأحياء عن إغاثتي؟ كيف لم أفكر في هذا قبل اليوم؟ يا إلهي!! كيف اطّرحت عقلي من قبل؟ ولماذا عطّلته وسلّمت قلبي لأموات غير أحياء.. في المزارات وعند الأضرحة وقبور الأولياء والصالحين أستغيث بهم وألتجئ إليهم وأطلب المدد منهم كلما نزلت بي مصيبة وركبني هم وضاقت بي الحيل؟ الذي يرى مكاني الآن ويسمعني، ويعلم ما يدور بخلدي وأنا مقطوع عن العالم في أعماق هذا البئر هو القادر على إنقاذي، وليس هناك إلا الله وحده جل جلاله؛

فهل من العدل والإنصاف وهل من العقل والحكمة أن أتوجه بقلبي في هذه اللحظات إلى أحد غير الله أطلب منه الغوث والمدد مهما كان تقياً ورعاً صالحاً؟ الغوثَ الغوثَ يا الله! رحماك يا رب! عدت إليك وأطلب منك المدد وحدك، أرجوه منك ولا أطلبه من غيرك.. اللهم أغثني يا مغيث، وأنقذني مما أنا فيه، وأخرجني من الظلمات إلى النور!

بقي كذلك يدعو ويستغيث بكلمات حرّى صاعدة من أعماق البئر وأعماق القلب حتى غلبه النعاس فنام.. وفي أول الصباح استيقظ على صوت الدِّلاء، تتدلّى إليه بحبل غليظ، فبادر قائماً وتشبّث بالحبل يهتف:

– اسحبني يا شريف.. أنا عمّك سليمان.. سقطت في البئر من أمس ولم أجد من يخرجني غيرك الآن..

وتردّد شريف لحظة، ثم أسرع ينادي من بجواره من عمال المزرعة ليعاونوه في سحب الحبل من داخل البئر..

الغوثَ الغوثَ يا الله! رحماك يا رب! عدت إليك وأطلب منك المدد وحدك، أرجوه منك ولا أطلبه من غيرك.. اللهم أغثني يا مغيث، وأنقذني مما أنا فيه، وأخرجني من الظلمات إلى النور!

في اليوم التالي جاءه ابن أخيه يزوره وسأل:

- بمن كنت تستغيث يا عمي وأنت في أعماق البئر؟

تردّد لحظة قبل أن يجيب وهو يتحاشى النظر إلى عيني ابن أخيه:

- بالله وحده جل جلاله..

- وأين من كنت تزورهم من أصحاب الأضرحة والمزارات، وتستغيث بهم وتطلب منهم المدد ؟

فكر لحظة ثم أجاب بكل ثقة:

- الحمد لله هداني بهذه الحادثة، وأخرجني من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد كما أخرجني من ظلمات هذا البئر!

ثم قال لابن أخيه وقد اكتست ملامحه بالجد والاهتمام:

- ولكن في نفسي شيء وأريد أن أسألك عنه يا ابن أخي؟

- تفضّل يا عم..

فقال لهم النبي ﷺ:

«إنه لا يستغاث بي، وإنما

يُستغاث بالله»

- ليس في الدنيا منذ آدم أحدٌ في مقام النبي محمد ﷺ ومنزلته عند الله..

قاطعه ابن أخيه قائلاً:

- ﷺ.. صدقت يا عمّاه..

- فهل كان أصحابه رضي الله عنهم يستغيثون به في حياته أو بعد مماته إذا نزلت بهم شدّة أو كُربة؟

- كلا يا عم، حتى في أشدّ الأوقات وأحكمها، لقد كان في زمن النبي ﷺ منافق شديد النفاق اسمه عبد الله بن أُبي بن سلول، وكان يؤذي المؤمنين أذى شديداً، فقال بعض الصحابة: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. أي: نطلب منه كفَّ هذا المنافق عن الأذى. فقال لهم النبي ﷺ: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله» (أخرجه أحمد والطبراني، وابن سعد في الطبقات). فانظر كيف كره رسول الله ﷺ أن يُستعمل هذا اللفظ في حقّه تأدباً منه ﷺ مع الله سبحانه، وسدّاً لذريعة الشرك، وحماية للتوحيد، مع أنه يقدر على إجابتهم فيما طلبوه..

قال وهو يحاول أن لا يبدو عليه الاضطراب الذي شعر به في داخله:

- ماذا تعني بقولك يا ابن أخي: سدًا لذريعة الشرك وحماية للتوحيد؟

- أعني بذلك أن من استغاث بغير الله فقد أشرك شركاً أكبر، ويُخاف عليه بسببه أن يخرج من الدين!

صاح بغير وعي منه:

- اللهم لطفك!

سأله ابن أخيه مازحاً وهو يتضاحك:

- ممّ يا عمّاه؟ أمن الأفعى؟

فرد عليه بهدوء ويقين:

- بل مما هو أخطر من الأفعى؛ من الشرك يا ابن أخي!

تم بحمد الله

إعداد

مكتبة الحرم المكي الشريف

إنتاج

إدارة المطبوعات والنشر

عربي

أخطر من الأفعى